تأملات لمرافقة مريم العنراء في وحدانيتها يوم السبت

من كتاب القديس الفونس ماريا دي ليجوري

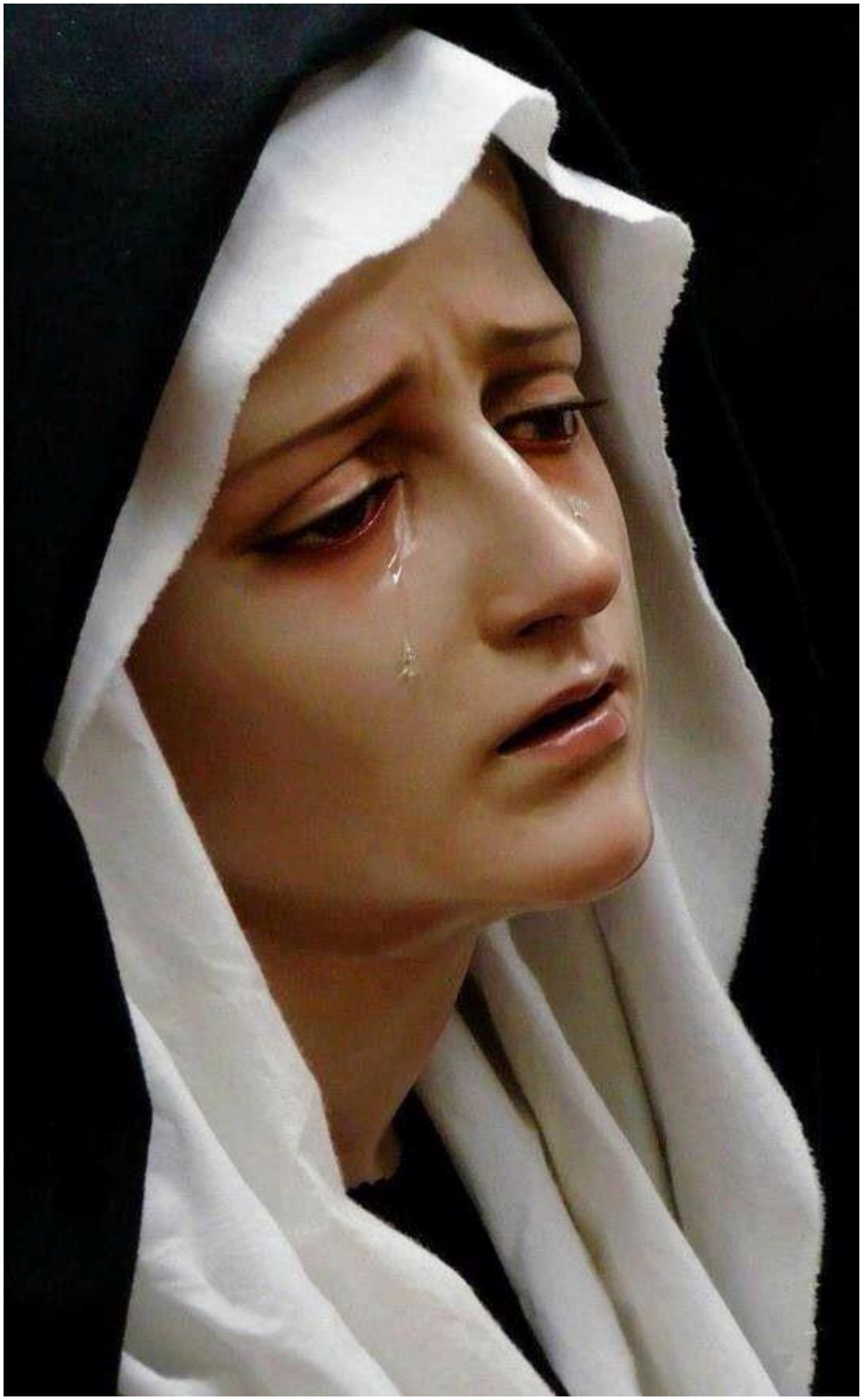

يا مريم لجة المحبة اجعليني أشعر بأحزانك وأبكي معك

صلاة افتتاحية

أنني لا أريد أن أتركك تبكين وحدكِ يا أمي المتألمة، بل أقصد أن أرافقكِ بدموعي، فأنا أطلب منكِ اليوم هذه النعمة وهي أن تستمدي لي أن أحفظ على الدوام ذكر آلام سيدي يسوع المسيح في عقلي وقلبي. وأن أكون حسن العبادة نحو هذه الآلام المقدسة، لكي أصرف الأيام الباقية من حياتي بالبكاء على أوجاعه تعالى بالجسد وأوجاعكِ! فأنا أرجو أن تكون هذه الآلام عتيدةً أن تمنحني في ساعة موتي طمأنينةً وقوةً، لكيلا اقطع رجائي عند تأملي كثرة الأهانات التي أغظت بها سيدي، وتهبني غفران خطاياي ونعمة الثبات في البر والحياة الأبدية التي أرجو أن أبلغ إليها، وهناك أفرح معكِ وأسبح مراحم إلهي الغير المتناهية.*

فالقديس برنردوس يقول مخاطباً إياكِ يا أمي البتول المجيدة هكذا: أيتها السيدة يا من تختطفين قلوب البشر بعذوبة حلاوتكِ، أما أنكِ أختطفتِ قلبي أنا أيضاً. فمتى تريدينه لي يا خاطفة القلوب، ولهذا أنتِ أهتمي به ودبريه مع قلبكِ، وضعيه في جنب أبنكِ، وحينئذٍ أنا أملك الشيء الذي أبتغيه، لأنكِ أنتِ هي رجاؤنا. آمين

ترى من هو ذاك الإنسان الحاصل على قلبٍ قاسٍ كالجلمود، حتى أنه لا يتوجع متخشعاً عند أستماعه إيراد حادثٍ مملؤٍ من الغم، مستحق الندب والبكاء الحادث الذي حصل وقتاً ما في هذا العالم وهو أنه كانت على الأرض أمرأةٌ شريفةٌ قديسةٌ، لم يكن لها الا أبنٌ وحيدٌ، وهذا الأبن كان هو الموضوع المستحق أعظم المحبات الممكن تصوره في العقل، باراً جميلاً حاوياً كل الفضائل، مغرماً بالحب الشديد نحو هذه الوالدة، بنوع أنه قط لم يكن أغاظها بأدنى شيءٍ. بل كان دائماً يحترمها بوقارٍ، ويطيعها بتكريمٍ، ويكمل مشيئتها بكل حقائق الحب، ولذلك قد وضعت هي فيه جميع أميالها وعواطفها وحبها على الأرض. فماذا جرى بعد ذلك، فقد حدث أن هذا الأبن لأجل روح الحسد الذي أستوعبت منه قلوب أعدائه، قد اشتكوا عليه كذباً وعدواناً أمام القاضي، الذي ولئن كان عرف براءته وأشهرها معترفاً بها، فمع ذلك لكيلا يغيظ هو أولئك الأعداء قد حكم على هذا الأبن البريء من الذنب بالموت ذي العار والخزي، بالنوع المطلوب من الأعداء أنفسهم، ومن ثم هذه الأم المسكينة أحتملت الحزن الشديد المسبب لها من قبل مشاهدتها أبنها البار المحبوب منها بهذا المقدار، يقتل ظلماً في سن شبيبته بميتةٍ بربريةٍ كلية القساوة! أعدموه . الحياة أمام عينيها، فيما بين العذابات الأشد أوجاعاً، وأماتوه موت الخزي والعار. فماذا تقولون يا ذوي الأنفس الحنونة اللينة، أما أن هذا الحادث هو مستحق التوجع والشفقة، وأما أن هذه الوالدة الحزينة هي مستأهلة أن يرثى لها ويشفق عليها. فأنتم تفهمون جيداً عمن أشير أنا بهذا الحادث. أي أن الأبن الذي حكم عليه بالموت وقتل بالنوع المقدم إيراده، هو مخلصنا يسوع المسيح الموضوع المستأهل كل محبة، والأم التي تكبدت الأحزان والآلام بما أشرنا عنه، هي والدة الإله مريم الطوباوية، التي حباً بنا وبخلاصنا قد أرتضت بأن تشاهد أبنها هذا الحبيب مقدماً ذبيحةً للعدل الإلهي بأيدي البشر القساة القلوب. فاذاً الأوجاع والأحزان التي ذاقتها من أجلنا هذه الأم الإلهية بمرارةٍ تفضل على مرائر ألف ميتةٍ، تستحق منا التوجع والترثي ومعرفة الجميل. وأن كان لا يوجد لنا شيءٌ آخر نكافئ به حبها إيانا هذا الشديد، فقلما يكون نأخذ في هذا اليوم بالتأمل برهةً من الزمان، في شدة الحزن والتوجع والألم الذي تكبدته هذه العذراء، ومن قبل ذلك صارت هي سلطانة الشهداء، اذ أن أوجاع أستشهادها قد فاقت على عذابات الشهداء كاف.

حزن مريم البتول بموت أبنها الحبيب يسوع المسيح أمام عينيها

فها هوذا نحن الآن نلاحظ بأنذهالٍ نوعاً جديداً من الأستشهاد، وهو أن أماً تلتزم بأن تشاهد بأزاء عينيها يموت بحكمٍ ظالم فيما بين العذابات البربرية الشديدة القساوة أبنها البار المحبوب منها فوق كل شيءٍ. فعن هذا الأستشهاد لا يلزم أن نقول شيئاً آخر سوى الكلمات التي دونها عنه القديس يوحنا الأنجيلي نفسه قائلاً: وكانت واقفةً عند صليب يسوع أمه: (١٩ع٢٥) فأنظر يا هذا. البتول المجيدة واقفةً بالقرب من صليب أبنها الحبيب ملاحظةً إياه في حال النزاع مدنفاً على الموت، وبعد ذلك أفتكر أن كان يوجد وجعٌ مثل وجعها. ولهذا فلنتصور ذواتنا حاضرين في جبل الجلجلة، ولنأخذ الآن بالتأمل في سيف الحزن الخامس الذي طعن قلب هذه الأم المحزونة، وهو مشاهدتها موت أبنها يسوع على الصليب.*

فحينما بلغ فادينا يسوع (في الحال التي لاحظناه بها في الفصل السابق) الى جبل الجلجلة، فالجلادون نزعوا عنه ثيابه، وسمروه عارياً على الصليب بيديه ورجليه المقدسة بمسامير لا رأس لها. أي مقطوع حدها الرفيع، كما يقول القديس برنردوس. وذلك لكي تعذبه أشد عذاباً بأنغراسها الأغتصابي في يديه ورجليه. وبهد أن رفعوا الصليب ونصبوه قائماً في الأرض، قد تركوا يسوع معلقاً عليه في تلك الحال ليموت هكذا. فالصالبون قد أهملوه على هذه الصورة وأما والدته البتول فلم تفارقه، بل أنها أقتربت أكثر قرباً من صليبه لتحضر موته. كما أخبرت هي نفسها للقديسة بريجيتا في الوحي قائلةً: أنني ما فارقت أبني يسوع، بل كنت واقفةً بالقرب من صليبه: الا أن القديس بوناونتورا يخاطب هذه السيدة بقوله: ماذا كان يفيدكِ يا سيدتي ذهابكِ الى جبل الجلجلة لتموتي أمام أبنكِ. فقد كان يلزم أن يمنعكِ عن المضي الى هناك الخجل، لأن العار والخزي الملمين بهذا الأبن فهما ملتحقان بكِ أنتِ أيضاً اذ أنكِ أمه. أو قلما يكون تصوركِ أثماً هكذا شنيعاً نفاقياً، وهو أن إلهاً متجسداً يصلب بأيدي خليقته نفسها. كان يلزم أن يمنعكِ عن مشاهدته: غير أن القديس المذكور عينه يرد الجواب عن ذلك قائلاً: أن قلبكِ لم يكن يعتبر هذا الأمر خزياً ومكروهاً، بل مؤلماً: أواه أن قلبكِ حينئذٍ لم يدعكِ أن تفتكري في وجعكِ وتألمكِ بل في أوجاع أبنكِ وآلامه وموته. ولهذا أردت أن تحضري أنتِ نفسكِ تحت صليبه. قلما يكون لكي تتوجعي من أجله: فأنتِ هي الأم الحقيقية والمحبة الصادقة (يقول نحوكِ الأنبا غولياموس) اذ أنه ولا الخوف من أنكِ تموتين أمكنه أن يفصلكِ عن أبنكِ الحبيب: فيا له من مشهدٍ موعبٍ من الأحزان والأوجاع الباطنة، فيه كان ينظر هذا الأبن الإلهي منازعاً على الصليب، وفي الوقت عينه كانت تشاهد هذه الأم البتول تحت صليبه منازعةً هي أيضاً، لتكبدها في ذاتها الآلام عينها التي كان أبنها يتعذب بها. فقد أخبرت في الوحي للقديسة بريجيتا هذه الأم الإلهية عينها عن الحال التي شاهدت هي بها أبنها في تلك الساعة على الصليب قائلةً هكذا: فقد كان أبني الحبيب على الصليب متعوباً في الغاية مترادف التنفس بأنزعاجٍ، منازعاً مقارباً للموت، وكانت تشاهد مقلتاه غائرتين في جورتيهما، وعيناه نصف مطبوقتين، وشفتاه مرتخيتين، وفمه مفتوحاً، ووجنتاه بلونٍ أصفر. ولحمانهما ملتصقةً بأسنانه، وحنكاه يابسين، وأنفه كفي حال الموت، ووجهه مقطباً كئيباً، ورأسه كان يلاحظ منحنياً نحو صدره، وشعره أسود مصبوغاً بالدم، وبطنه لاصقاً بظهره. وذرعاه وساقاه موترةً بأشدادٍ. وسائر أعضاء جسده مملؤةً جراحاتٍ قاطرةً الدماء.*

فعذابات يسوع هذه كلها قد كانت هي عذابات مريم أيضاً والدته. كقول القديس أيرونيموس: أن جميع الجراحات التي كانت في جسم يسوع فهذه وجدت في قلب مريم: ومن ثم يقول القديس يوحنا فم الذهب: أن من أمكنه أن يكون حاضراً حينئذٍ عند جبل الجلجلة فقد كان يستطيع أن يشاهد هناك مذبحين مقدماً على كل منهما القربان العظيم،

فأحدهما في قلب يسوع وثانيهما في قلب مريم والدته: الا أنه يظهر لي أكثر ملائماً ما يعتبره القديس بوناونتورا مذبحاً واحداً مقدماً فوقه القربانان معاً، وهو مذبح الصليب المقدس الذي عليه جملةً مع الذبيحة التي بها قدم فوقه الأبن ذاته ضحيةً كحملٍ لا عيب فيه، قد ضحت ذاتها هذه الأم الإلهية أيضاً، ولذلك يخاطبها القديس المذكور عينه متسائلاً بقوله لها: يا سيدتي مريم أين أنتِ كائنةٌ، أهل تحت الصليب. أواه أنه بأكثر صوابٍ وعدالةٍ ينبغي أن أقول أنكِ كائنةٌ فوق الصليب عينه، لكي تقدمي ذاتكِ ذبيحةً. مصلوبةً جملةً مع أبنكِ يسوع. وهكذا يثبت ذلك القديس أوغوسطينوس بقوله: أن الصليب والمسامير كانت للأبن ولأمه معاً، لأنه اذ صلب المسيح فصلبت أمه أيضاً معه. وهذا لا ريب فيه، لأن القديس برنردوس يبرهن قائلاً: أن الشيء الذي كانت تفعله المسامير في جسد يسوع فهذا نفسه كان يفعله الحب في قلب مريم. بنوع أنه في الوقت عينه الذي فيه كان الأبن يضحي جسده محرقةً على الصليب، ففيه كانت أمه تضحي نفسها محرقةً معه: (كما كتب القديس برنردينوس).*

فالأمهات أعتيادياً يهربن من الأمكنة التي فيها يكون أولادهن منازعين، لكيلا يشاهدن بأعينهن موتهم، ولكن اذا وجدت أمٌ ما مضطرةً لأن تلبث عند أبنها ساعة موته، فتهتم هي بأن تصنع له كل ما يمكنها أن تسعفه به مخففةً عنه آلام النزاع مجتهدةً في أن تصلح له سريره وفراشه ليكون مرتاحاً في أتكائه، مداومةً على أن تسقيه الأشياء المرطبة المبردة، وبهذا النوع يمكنها أن تجد هي تعزيةً ما في هذه الخدمة تسكن عنها أحزانها المرة. أواه أيتها الأم المملؤة أوجاعاً مريم الأشد تألماً وحزناً من الأمهات كلهن. فأي نعم أنه رسم عليكِ أن تحضري عند أبنكِ ساعة موته تحت صليبه، ولكن لم تعط لكِ الأستطاعة على أن تسعفيه بشيءٍ ما من الأشياء مطلقاً. لأنه قد سمعت هذه الأم المحزونة أبنها يسوع قائلاً: أنا عطشان: ولكن لم يسمح لها بأن تقدم له قليلاً من الماء ليطفئ به حرارة عطشه الشديد. بل كما يلاحظ القديس فيجانسوس فراري أنها أجابته قائلةً: ليس يوجد عندي يا ولدي من الماء سوى دموعي. ثم أنها كانت تشاهد حبيبها يسوع فوق فراش الصليب معلقاً بيديه ورجليه بثلاثة مسامير متعوباً جداً. ومن ثم كانت تشتهي أن تعانقه بين يديها ليمكنه أن يجد قليلاً من الراحة، أم أن يعطى لها أن تأخذه في حضنها ليموت على ركبتيها، ولكن لم تكن تحصل على ذلك (كما كتب القديس برنردوس) وكانت تلاحظ جيداً كيف أن يسوع الغائص في بحر الآلام والأحزان كان يطلب تعزيةً ما ولم يجد، حسبما قد كان هو تعالى سبق وقال بفم نبيه أشعيا: دست المعصرة وحدي... كما نظرت حولي ولم يكن معينٌ وطلبت فلم يكن ناصرٌ: (ص٦٣ع٣و٥) ولكن ترى من كان يريد أن يعزيه من البشر الذين أضحوا كلهم أعداءً له، لأنه وهو على الصليب كان بعضهم يجدف عليه بنوعٍ، وبعضهم بنوعٍ آخر، كما كتب القديس متى الإنجيلي بقوله: وكان المجتازون به يجدفون عليه، ويحركون رؤسهم قائلين يا ناقض الهيكل وبانيه في ثلاثة أيامٍ خلص نفسك أن كنت أبن الله وأنزل عن الصليب. وهكذا رؤساء الكهنة مع الكتبة والشيوخ كانوا يهزأون به ويقولون، خلص آخرين ولم يقدر أن يخلص نفسه، أن كان هو ملك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب: (متى ص٢٧ع٣٩ألخ) بل أن والدة الإله أخبرت القديسة بريجيتا بأكثر من ذلك قائلةً لها في الوحي: أنني سمعت البعض يقولون عن أبني أنه كان لصاً. وغيرهم أنه كان خداعاً، وآخرون قالوا أنه لم يكن أحدٌ مستحقاً للموت نظيره، وهذه الأقوال كلها قد أضحت لدي سيوفاً جديدةً تقطع قلبي:*

الا أن الشيء الذي أحزن قلب هذه الأم الإلهية أشد حزناً، وأوعبها من مرارة التألم والتوجع بأبلغ نوع من كل ما سواه، هو سماعها أبنها الحبيب متشكياً من أن أباه الأزلي عينه قد كان أهمله، بنوع أن: يسوع صرخ بصوتٍ عظيمٍ قائلاً إيلي إيلي لما صافختاني: الذي تأويله إلهي إلهي لماذا تركتني: (متى ص٢٧ع٤٦) فهذه الكلمات قد جرحت فؤاد مريم البتول جرحاً هكذا عظيماً، حتى أنه، حسبما أوحت هي للقديسة بريجيتا لم يكن يبرح من فكرها ذكر تلك الكلمات مدة باقي

أيام حياتها. فاذاً قد كانت هذه الأم السابحة في بحر الأحزان تشاهد أبنها من كل الجهات معذباً متألماً متروكاً، وكانت تجتهد في أن تسعفه بشيءٍ ما ولكن لم يكن ممكناً لها. والأبلغ من ذلك هو أنها كانت تلاحظ حسناً أن وجودها أمام عيني أبنها في تلك الحال، كان يسبب له آلاماً خصوصيةً مزادةً على آلامه. فمن ثم كتب القديس برنردوس قائلاً: أن التألم الذي كان يوعب قلب مريم مرارةً، فهذا عينه كان يفجع قلب يسوع ويطعنه بالحزن. ويقول في محلٍ آخر: أن المسيح وهو على الصليب قد تألم من قبل حزنه وتوجعه على والدته أشد تألماً من عذاباته كلها. فهكذا يتكلم هذا القديس عن لسان البتول قائلاً: أنا كنت واقفةً بالقرب من صليب أبني ناظرةً إليه، وهو كان ناظراً إليَّ، ولكنه كان يتألم من أجلي أكثر تألمه من قبل أوجاعه. وقال أيضاً عن هذه السيدة: أن مريم كانت واقفةً قربةً من صليب أبنها يسوع عادمة الصوت من شدة الحزن، وكانت عائشةً في الحياة منازعةً كمدنفةٍ على الموت، ولكنها اذ لم تقدر أن تموت فبقيت حيةً منازعةً. وقد كتب العلامة باسيوس بأن فادينا نفسه ظهر مرةً ما للطوباوية باتيسطا فارانا التي من مدينة كامارينو وقال لها:" أنه بهذا المقدار كان هو يشعر بأنفعالات الحزن والتألم من قبل مشاهدته من على الصليب والدته واقفةً بالقرب منه في تلك الحال المرثى لها، حتى أن تلك المشاهدة جعلته أن يموت فاقد التعزية". فهذه الكلمات أثرت كثيراً في قلب الطوباوية المذكورة المستنيرة من الله لأن تعرف حقيقة آلام يسوع من هذا القبيل، حتى أنها هتفت متوسلةً إليه تعالى بقولها: يا سيدي لا تعد تقول لي شيئاً عن حزنك هذا، لأني لا أستطيع بعد أحتمالاً.*

أما سمعان داكاسيا فيقول:" أن الأنام الذين كانوا يشاهدون حينئذٍ مريم في تلك الحال صامتةً، فكانوا ينذهلون من سكوتها وعدم تشكيها بكلمةٍ ما في أوقات آلامها هذه الفائقة الأحتمال. ولكن اذا كانت هي وقتئذٍ ساكتةً بفمها فلم تكن صامتةً في قلبها. لأنها في تلك الأوقات ما صنعت هي شيئاً آخر سوى تقدمتها بتكرارٍ لدى العدل الإلهي حياة أبنها من أجل خلاصنا". ولهذا نحن نعلم أنها قد أكتسبت هي بأستحقاقات أوجاعها وأحزانها المشار إليها صفة: مشاركة في عمل خلاصنا: أي في أن نولد جديداً في حياة النعمة. وبالتالي نحن هم أولاد أوجاعها. ويقول لاسبارجيوس: أن المسيح اذ قد أراد أن يقيم والدته أماً لنا فجعلها أن تكون مشاركةً في عمل أفتدائنا، لأنه كان يلزمها أن تلدنا بنين لها تحت صليب يسوع. فاذاً يمكنني أن أقول أنه أن كانت هذه الأم الإلهية وهي غائصة في بحر مرائر تلك الأحزان صادفت تعزيةً ما. فهذه التعزية الوحيدة أنما كانت قائمةً في تذكرها بأنها بواسطة أحزانها وآلامها المشار إليها كانت تفيدنا في أمر خلاصنا الأبدي. كما أوحى مخلصنا عينه للقديسة بريجيتا بقوله: أن مريم والدتي أنما صارت أماً لأهل السماء والأرض لأجل توجعها وحبها. وبالحقيقة أن الكلمات الأخيرة التي قالها مخلصنا لوالدته وهو على الصليب مودعاً إياها قبل أن يموت، قد كانت تسليمه إياها أولاداً لها في شخص تلميذه القديس يوحنا، وهذا كان منه بمنزلة وصيته الأخيرة التي بها ترك لأمه تذكرةً وميراثاً أن نكون نحن أولادها وهي أمنا بقوله لها: يا أمرأة ها أبنكِ: (يوحنا ص١٩ع٢٦) وهكذا منذ تلك الساعة أبتدأت مريم العذراء أن تمارس نحونا وظيفة أمٍ صالحةٍ. على أن القديس بطرس داميانوس يشهد بأن اللص الجيد أنما ندم على خطاياه، وأعترف بلاهوت فادينا قائلاً له: أذكرني يا رب اذا أتيت في ملكوتك: وهكذا فاز بالخلاص الأبدي وذلك من قبل تضرعات هذه الأم الإلهية من أجله، لأنه على موجب رأي بعض الكتبة الكنائسيين أن هذا اللص حين سفر والدة الإله مع طفلها وخطيبها الى مصر، قد كان في الطريق صنع معها معروفاً، بل أن هذه السيدة الرأوفة قد مارست دائماً وظيفة أمٍ نحو الجميع من ذلك الحين فصاعداً بدون أنقطاع، كما تمارس هذا الأمر الآن وفي المستقبل أيضاً.*

صلاة

أواه أيتها الأم المتألمة أشد آلاماً وأحزاناً وأوجاعاً من الأمهات كلهن. فاذاً قد مات أبنكِ الحبيب الذي بهذا المقدار كنتِ تحبينه ويحبكِ. فأبكي بالصواب عليه لأنه يستحق ذلك، ولكن ترى من يمكنه أن يعزيكِ عن فقده، فشيءٌ واحدٌ يستطيع على تعزيتكِ وهو تفكركِ في أن يسوع بموته قد قهر الجحيم وأنتصر عليه غالباً، وفتح للبشر أبواب الفردوس السماوي الذي كان مغلقاً دونهم، وهكذا قد اكتسب نفوساً غير محصى عددها. وقد ملك وهو على الصليب مستولياً على قلوبٍ لا حد لكثرتها من أولئك الذين غلبوا من مفاعيل حبه إياهم فيخدمونه تعالى بأمانةٍ، فلا تأنفي يا مريم سيدتي من أنكِ تقبليني بالقرب منكِ لأبكي معكِ، لأن الصواب يقضي مني أن أبكي أكثر منكِ، لأجل أني أغظت إلهي مراتٍ عديدةً. فيا أم الرحمة أنا أرجو غفران خطاياي أولاً بأستحقاقات موت مخلصي يسوع المسيح، وبعد ذلك بأستحقاقات أحزانكِ التي قد تكبدتيها حين آلامه. ومعاً أرجو نوال الخلاص الأبدي آمين.*

حزن العنراء والدة الإله، عند طعن جنب يسوع المسيح بالحربة وتنزيله من على الصليب.

يا عابري الطريق أنظروا وتأملوا هل رأيتم وجعاً مثل وجعي، (مراثي أرميا ص١ع١٢) فيا أيتها الأنام المتعبدون للبتول القديسة المحزونة أسمعوا ماذا تقول هي نحوكم اليوم:" يا أبنائي الأعزاء أنا لا أريد منكم أن تهتموا في تعزيتي، كلا، لأن قلبي لم يعد بعد موضوعاً قابلاً لأن يحصل (ما دمت في الأرض) على تعزيةٍ ما، بعد موت أبني الحبيب يسوع. فأن كنتم اذاً تريدون أن ترضوني فأنا لا أريد منكم الا هذا الشيء، وهو أنكم تلتفتون نحوي وتتأملون فيَّ لتنظروا هل يوجد في العالم وجعٌ مثل وجعي، عند مشاهدتي مخطوفاً مني بعذاباتٍ كلية القساوة ذاك الذي كان هو موضوع حبي كله". ولكن أيتها السيدة أن كنتِ لا تريدين أن تتعزي، وما زلتِ متعطشةً لأقتبال أحزانٍ أخرى. فأنا أقول لكِ أنه ولا بموت ابنكِ قد انتهت أحزانكِ. لأن سيفاً آخر مزمعٌ أن يلج في نفسكِ بعد موته، وهو مشاهدتكِ واحداً من الجند يطعن جنب حبيبكِ بحربةٍ طعنةً بربريةً. ثم بعد ذلك تقتبلين بين يديكِ وفي حضنكِ جسد أبنكِ بعد تنزيله من على الصليب. وها نحن نأخذ الآن بالتأمل في الموضوع السادس لأحزان هذه الأم الإلهية. الأمر الموجب التأمل حسناً والدموع الحارة. فإلى هنا يبان أن أوجاع هذه السيدة قد جاءت رويداً رويداً واحداً فواحداً. وأما في هذا الموضوع السادس فكأن الأحزان بأسرها قد داهمتها معاً.*

فأمرٌ خالٍ من الأرتياب هو أنه يكفي القول لأمٍ ما أن أبنها قد مات لأن يلتهب قلبها بنار حبه. ويطعن بسهم فقده. ولهذا قد أعتاد البعض لكي يخففوا نوعاً أحزان الأمهات الفاقدات أولادهن بالموت. أن يأتوا أمامهن بذكر تلك الأشياء التي كان بنوهن سببوا لهن بها (اذ كانوا أحياء) الغيظ أو الأهانة. ولكن اذا أردت أنا أن أتبع نحوكِ أيتها السيدة هذه الطريقة عينها لتخفيف حزنكِ. فأي حادثٍ يمكنني أن أجده لأذكركِ في أن أبنكِ قد أغاظكِ به كلا، لأن هذا الأبن الإلهي قد أحبكِ دائماً وأطاعكِ مطلقاً وكرمكِ على الدوام. ولذلك من يستطيع أن يصف أحزانكِ وآلامكِ على فقده سواكِ أنتِ التي أختبرتِ مفعولها في ذاتكِ. فيقول أحد الكتبة العباد: أنه بعدما مات فادينا على خشبة الصليب فالعواطف الأولى التي مارستها مريم البتول قد كانت أن ترافق بالروح نفس أبنها الكلية القداسة مقدمةً إياها لدى الآب الأزلي، وكأنها كانت تقول له:" إلهي أني أقدم لك نفس أبنك وأبني البريئة من العيب التي قد أطاعتك حتى الموت. فأنت أقبلها بين يديك. وها هوذا عدلك الإلهي قد أستوفى ما يحق له. وأرادتك المقدسة قد أكتملت. وقد أنتهت الذبيحة العظيمة

المقربة لأجل مجدك الأبدي: ثم ألتفتت نحو جسد أبنها المائت هاتفةً: أيتها الجراحات ذات الحب المضطرم أنني أسجد لكِ وأهنئكِ، لأنه بواسطتكِ قد أعطى الخلاص للعالم، فأنتِ مزمعةٌ أن تبقي مفتوحةً في جسم أبني الحبيب لكي تكوني ملجأً منيعاً لجميع أولئك الذين يبادرون نحوكِ محتمين فيكِ، لأنه كم وكم من البشر هم عتيدون أن يقتبلوا بواسطتكِ غفران خطاياهم. وبكِ تلتهب قلوبهم بمحبة الخير الأعظم".*

أما اليهود فاذ أرادوا الا يكدر فرح ذاك السبت العظيم الواقع في عيد الفصح. قد رغبوا تنزيل جسد يسوع من على الصليب، ولكن لأنهم لم يكونوا يستطيعوا أن ينزلوا أجساد المصلوبين قبل أن تكون أنفصلت عنها الأنفس بالموت. فلهذا جاء الجند ومعهم عصي حادة فكسروا ساقي اللص الأول وساقي اللص الآخر ليموتا سرعةً. وأما مريم البتول فكانت واقفةً هناك تبكي على موت حبيبها يسوع. وحالما شاهدت الجنود جاءوا بالأسلحة وكسروا ساقات اللصين متحهين ضد جسد أبنها أيضاً. ففي الأبتداء أستوعبت منهم خوفاً. ولكن بعد ذلك، يقول القديس بوناونتورا، قد تفوهت نحوهم هكذا قائلةً: واحسرتاه أن أبني قد مات فأعدلوا عن أن تفترئوا عليه أكثر . وتغاضوا عن أنكم تسببون لي أنا أمه المسكينة آلاماً أمر: الا أنه وفيما كانت هي تخاطبهم بهذا الكلام الصوابي. واذا بها شاهدت واحداً من الجند قد دنا من جسد يسوع. وبقوةً شديدةٍ طعنه في جنبه بالحربة التي كانت بيده. وللوقت خرج من ذاك الجنب الأقدس المفتوح على هذه الصورة بطعن الحربة دمٌ وماءٌ (يوحنا ص١٩ع٣٤) ففي هذه الطعنة ومن جرائها قد أرتج جسد يسوع مع صليبه. وأنقسم قلبه المقدس. كما أوحى للقديسة بريجيتا. وأنما خرج من جنبه المطعون دمٌ وماءٌ، لأنه لم يكن باقياً في جسده تعالى شيء من دمه كله سوى تلك النقط القليلة التي أستمرت مخزونةً في قلبه. فهو أراد أن تهرق هذه أيضاً من أجلنا ويخرج في أثرها الماء ليشير إلينا بأنه لم يعد عنده دمٌ يقدمه عنا. فيقول لاسبارجيوس العابد: أن الأهانة والأفتراء الصادرين عن هذه الطعنة بالحربة قد ألحقتا بيسوع، وأما الوجع والتألم المختصان بها فألتحقا بقلب مريم. ثم أن الآباء القديسين يرتاءون بأن هذه الطعنة هي حقيقة ذاك السيف الذي قال عنه البار سمعان الشيخ لوالدة الإله متنبئاً بأنه كان عتيداً أن يحوز في نفسها. السيف الذي لم يكن من الحديد بل من مرارة الحزن الذي طعنت به نفسها المباركة الموجودة على الدوام ساكنةً بالحب داخل قلب أبنها المطعون بهذه الحربة. وفيما بين الآخرين الذين فسروا ذلك على هذه الصورة هو القديس برنردوس القائل (في مراثيه على العذراء): أن الحربة التي طعن بها جنب يسوع قد جازت في نفس مريم التي لم تستطع أن تفارق هذا القلب المطعون. كما كان سبق لها الإيعاز بذاك السيف الذي كان عتيداً أن يحوز في نفسها: بل أن العذراء المجيدة عينها قد أوحت للقديسة بريجيتا قائلةً: أنه حينما كانت الحربة تجذب خارجاً من قلب أبني كان يظهر رأسها مغموساً بالدم. ووقتئذٍ كان يبان أن قلبي أنطعن مفتوحاً عند نظري قلب أبني الحبيب مطعوناً بها:.*

حتى أن الملاك أخبر القديسة بريجيتا في الوحي: بأن أوجاع مريم البتول من قبل هذه الطعنة كانت بهذا المقدار شديدةً مؤلمةً، بنوع أنها بأعجوبةٍ إلهيةٍ لم تمت هي وقتئذٍ من مرارة التوجع: ثم أنه كان يوجد لهذه السيدة في حين أوجاعها الأخرى من يخففها عنها نوعاً وهو يسوع حياً متشفقاً عليها. أما في الوجع المذكور فلم يكن معها هذا المعزي الذي قد مات:.*

ومن حيث أن هذه الأم الإلهية كانت تخاف بالصواب من أن أعداء أبنها يمارسون ضد جسده الطاهر أهاناتٍ أخرى ذات أفتراءٍ نفاقي. فقد توسلت الى يوسف الرامي في أن يلتمس من بيلاطس أن ينزل هذا الجسد من على الصليب، حتى يمكنها قلما يكون بعد موت حبيبها أن تحفظ جسمه ناجياً من الأهانة والأفتراء الممكن أن يلتحقا به جديداً. فمن ثم أنطلق يوسف عند بيلاطس، وأعرض لديه حال الأحزان والأوجاع الملمة بقلب هذه الأم المتألمة على ابنها، وكيف كانت

هي تشتهي أن تنال تنزيل جسده عن الصليب. وحسب رأي القديس أنسلموس أن بيلاطس حينئذٍ قد أخذته الشفقة على أمٍ هذه صفتها، ورثي لها، آذناً ليوسف بأن ينزل جسد أبنها عن الصليب. ويدفنه حيثما يشاء. وهذا الأذن قد وضع بالعمل وهكذا أنزلوا جسم المخلص من الخشبة. أواه أيتها البتول الكلية القداسة. هوذا العالم رد إليكِ أبنكِ الذي كنتِ بحبٍ هكذا عظيمٍ أعطيتيه إياه: ولكن واحسرتاه (تقول مريم للعالم) بأية حالٍ أنت ترده لي: أن حبيبي أبيض أشقر منتخب من بين ربواتٍ: (نشيد ص٥ع١٠) فأنا سلمتك أبني كلي البياض أحمر اللون، وأنت ترجعه إليَّ الآن لا بلونه بل مسوداً مصبوغاً بالدماء معدوماً من قبل الجراحات المكتسية بها أعضاء جسده. أنا دفعته إليك قريداً في جماله وحسنه وأنت ترده لي فاقد الصورة وعديم الجمال. فهو كان يجتذب القلوب الى الغرام بحبه بمجرد النظر الى بهاء طلعته. والآن تكره العيون أن ترمقه لسوء حاله. فيقول القديس بوناونتورا: أواه كم من السهام الأليمة قد رشقت قلب هذه الأم المحزونة، وكم من السيوف أجتازت في نفسها، حينما أحضر لديها جسد يسوع منزلاً من على الصليب. فيكفي التأمل في الحزن الذي يلم أعتيادياً بكلٍ من الأمهات عندما تشاهد جسد أبنها ميتاً. فقد أوحى الى القديسة بريجيتا بأنه في حين تنزيل جسد يسوع من الصليب قد أستعملت ثلاثة سلالم. وأن التلاميذ قد صعدوا عليها فأقتلعوا أولاً المسامير من يدي الجسم الطاهر ومن رجليه، وسلموها بيد والدته (كما كتب سمعان ميتافراسته) وبعد ذلك البعض منهم كان ماسكاً الجسد من فوق وبعضهم من أسفل، وهكذا أنزلوه من الخشبة. أما برنردينوس البوسطي فيلاحظ متأملاً كيف أن هذه الأم الموعبة من مرائر الحزن أقبلت نحو التلاميذ لتعانق جسد حبيبها المحمول منهم. رافعةً يديها منتصبةً على رؤوس أصابع رجليها لمساعدتهم، وكيف أنها بعد أخذها إياه في حضنها وسندته على ركبتيها جالسةً تحت صليبه. محدقةً بنظرها في جسمه، متأملةً في فمه المفتوح، وعينيه المعتمتين، ولحمانه الممزقة المملؤة جراحاتٍ، وعظامه المجردة، ثم كيف أنها رفعت أكليل الشوك المغروس في رأسه متأملةً في الثقوبة الموجودة في هامته المقدسة من تلك الأشواك ناظرةً الى يديه ورجليه المثقوبة من المسامير وقائلةً:" واحسرتاه يا أبني ونور عيني الى أية حالٍ أوصلتك محبتك العظيمة للبشر، فترى أي شرٍ صنعت أنت معهم حتى أنهم عاملوك بهذه القساوة. فأنت كنت معي أباً لي وأخاً وعروساً، وأنت حبيبي وتنعمي ومجدي وكل شيءٍ كنت املكه. فأنظر إليَّ يا أبني بما أنا فيه من الأحزان والأوجاع وأرمقني بنظرك معزياً إياي. ولكن أواه أنت ما عدت تشاهدني، فأعطيني كلمةً يا كلمة الله وعزني بلفظةٍ واحدةٍ، وأويلاه أنت ما عدت تفه بكلمةٍ لأنك قد مت". ثم بعد ذلك يلاحظها برنردينوس المذكور ملتفتةً نحو آلات آلامه قائلةً نحوها: أيتها الأشواك القاسية، والمسامير والحربة الجارحة المؤلمة، كيف أمكنكِ أن تعذبي بهذا المقدار خالقكِ. ولكن أنتم يا معشر الخطأة أنتم هم الذين عاملتم أبني هذه المعاملة السيئة المرثى لها.*

أي نعم أن مريم العذراء هكذا كانت تتشكى بالصواب منا حينئذٍ الا أنه لو أمكنها أن تكون هي الآن موضوعاً قابلاً لأن تحزن وتتألم. فترى أي شيء لكانت تتكبد منا عند مشاهدتها إيانا نحن البشر. بعد أن صلب أبنها عنا ومات من أجلنا نجدد ثانيةً صلبه وموته بفعلنا الخطايا والآثام التي هو تألم من جرائها ومات ليفي عنها. فاذاً يليق بنا ويلزمنا الا نحزن بعد قلب هذه الأم الموجوعة. واذا كنا فيما مضى نحن أيضاً سببنا لها التألم بمآثمنا، فلنصنعن الآن ما تقوله هي لنا عن لسان النبي أشعيا هاتفةً نحونا: أرجعوا أيها الفجار الى القلب: (ص٤٦ع٨) أي أرجعوا أيها الخطأة الى قلب أبني يسوع المجروح، وعودوا إليه تائبين وهو يقتبلكم محتضناً. فأهربوا منه بحسب كونه قاضياً وأرجعوا إليه بحسب كونه فادياً. أهربوا من المحكمة القضائية الى منبر الصليب: (كما يقول عن لسانها الأنبا غواريكوس) ثم أن هذه السيدة قد أوحت للقديسة بريجيتا بأنها حين أقتبالها جسد يسوع من على الصليب في حضنها، قد أغلقت هي بيدها عينيه. ولكنها لم تقدر أن تجمع ذراعيه وتضمهما الى صدره. مريداً مخلصنا أن يشير إلينا بأنه يرغب أن ذراعيه تستمراه مفتوحتين

ليعتنق بهما جميع الخطأة التائبين الراجعين إليه تعالى من كل قلوبهم: فيا أيها العالم (تقول هذه السيدة المتألمة مع حزقيال النبي ص١٦ع٨) قد مررت بك واذا حينك حين الأحباء. فهوذا أبني قد مات ليخلصك يا أيها العالم. فليس هو حينك بعد الآن حين الخوف والجزع، بل حين الحب والأنحباب، حين الأنعطاف بالحب الحقيقي نحو من أظهر لك حقائق حبه إياك بأحتماله حباً بك هذا المقدار من الآلام الشديدة: فيا أيها الخطأة، يقول القديس برنردوس، أن قلب المسيح قد جرح جرحاً حسياً ظاهراً، حتى عندما تعاينوا هذا الجرح المنظور تفطنوا بجرح المحبة الغير المنظور التي هو أحبكم بها: وهنا تختتم والدة الإله خطابها الذي عن لسانها يقوله العلامة أيديوطا بهذه الكلمات وهي: ان كان أبني قد أرتضى بأن يفتح جنبه بطعن الحربة لكي يعطيك قلبه أيها الإنسان، فعادلٌ وصوابي هو أنك تعطيه أنت قلبك واهباً إياه له: ويقول أوبارتينوس الذي من كازاله: أن كنتم يا أولاد مريم البتول تريدون أرادةً ثابتةً أن تجدوا مكاناً في قلب يسوع، فأمضوا جملةً مع هذه السيدة وهي تستمد لكم هذه النعمة:*

صلاه

أيتها البتول المتألمة يا ذات النفس العظيمة في الفضائل والشجاعة في الأوجاع أيضاً. أنه اذ كانت هذه وتلك أي الفضائل والأوجاع أنما تتولد فيكِ عن لهيب نار ذاك الحب الذي به تحبين الله. لأن قلبكِ لا يعرف أن يحب شيئاً غيره تعالى، فأرحميني يا أمي أنا الذي ما أحببت الله بل أني أغظته مراتٍ هكذا عديدةً، الا أن أحزانكِ تعطيني رجاءً عظيماً في نوال غفران خطاياي، غير أن هذا لا يكفيني. فأنا أريد أن أحب سيدي، فمن هو الذي يمكنه أن يستمد لي منه عز وجل هذه النعمة نظيركِ أنتِ التي هي أم المحبة الجميلة. آهاً لي يا مريم فأنتِ من عادتكِ أن تعزي الجميع بمنح المواهب فعزيني اذاً أنا أيضاً آمين.*

حزن البتول مريم بدفن جسد أبنها الحبيب يسوع في القبر

أنه لا ريب ولا شك في أنه حينما تكون أمٌ ما حاضرةً عند أبنها الطبيعي حين نزاعه الأخير وموته، فتشعر هي في ذاتها بتلك الأوجاع عينها التي يتكبدها أبنها. الا أنه بعد أن يكون الأبن المعذب قد مات وأخذ ليدفن، وتوجد أمه المحزونة ملتزمةً بمفارقته، فيا له من ألمٍ شديدٍ يحيق بها حينئذٍ عند تفكرها بأنها ما عادت تقدر أن تشاهد ولدها مرةً اخرى. فهذا هو السيف الأخير من السبعة سهام الحزن التي جازت في نفس والدة الإله الكلية القداسة، الذي الآن نأخذ بالتأمل فيه، وهو ما تألمت به هذه البتول حينما ألتزمت. بعد أن حضرت صلب أبنها، وأحتضنته مائتاً، بأن تتركه أخيراً في القبر. وهكذا ينقطع أملها من أن تشاهده مرةً أخرى على الأرض.*

الا أننا لكي نتأمل جيداً في هذا الموضوع الأخير. فلنرجع بالعقل الى جبل الجلجلة لنشاهد هناك هذه الأم المملؤة أوجاعاً لم تزل محتضنةً على ركبتيها جسد أبنها يسوع المائت. وكأنها تقول نحوه كلمات أيوب البار هاتفةً يا أبني: قد صرت لي قاسياً: (أيوب ص٣٠ع٢١) أي نعم أن الأمر هو كذلك. لأن أعضاء جسدك الجميلة كلها، وحسنك، ولطافتك، ونعمتك، وفضائلك، وتصرفاتك الجليلة ذات الحب، وسائر علامات المحبة الخصوصية التي أظهرتها نحوي، والنعم والمواهب الفريدة، والأختصاصات الفائقة الشرف التي منحتنيها. فهذه كلها قد استحالت بالنسبة إليَّ سهاماً جارحةً تطعن قلبي مسببةً لي أحزاناً وأوجاعاً لا يمكن وصفها. بنوع أنها بمقدار ما ألهبت فيَّ قبلاً نيران الحب نحوك فبأكثر من ذلك الآن تصيرني أن أشعر بمرارة الحزن على كوني فقدتك. أواه يا أبني الحبيب أنني بخسراني إياك قد خسرت كل

شيء: فأنت هو الإله الحقيقي المولود مني (يقول القديس برنردوس عن لسانها في مراثيه لأحزانها) وأنت لي أبٌ، وفي الوقت عينه أنت لي أبنٌ وعروسٌ معاً. وأنت لي نفسٌ وحيوةٌ، فأنا الآن يتيمةٌ من الأب وأملةٌ من العروس وفاقدة الأبن. واذ أني خسرتك أنت يا أبني فقد خسرت بك كل شيء.*

فهكذا كانت مريم تندب أوجاعها وترثي حبيبها يسوع معانقةً جسده الطاهر. الا أن التلاميذ القديسين لخوفهم الصوابي من أن هذه الأم المطعونة بسهام الحزن المفرط تموت مع أبنها الإلهي من شدة الحزن، قد أجتهدوا في أن يأخذوا جسده من حضنها بكل أسراعٍ. ويأتوا به ليدفنوه. وهكذا بأغتصابٍ أحترامٍ أحتالوا بأخذه من بين ذراعيها. واذ حنطوه بالمر ولفوه بالسباني التي أراد تعالى أن تنطبع بها صورته، ليتركها في العالم تذكرةً لدفنه، كما تشاهد الى الآن محفوظةً في مدينة طورين، فهكذا حمل التلاميذ هذا الجسد الكلي القداسة وساروا به نحو القبر، حيث كانت طغمات الملائكة مرافقةً هذا الباعوث جملةً مع النسوة البارات ومع والدة الإله الغائصة في بحر الأحزان. ولما دنوا من المغارة المعد فيها القبر أنزلوه هناك، ولكن لقد كان أمراً محبوباً في الغاية لدى هذه السيدة أن تدفن حيةً هي أيضاً مع جسد أبنها، لو كان ذلك ممكناً لها، حسبما أوحت هي نفسها للقديسة بريجيتا. الا أن العزة الإلهية لم تكن تشاء ذلك. ثم على رأي الكردينال بارونيوس أن هذه الأم المتألمة قد دخلت معهم مغارة القبر. وبعد أن وضعوا هناك جسد المخلص وتركوا معه المسامير وأكليل الشوك، فحينئذٍ هؤلاء التلاميذ ألتفتوا نحو والدة الإله قائلين لها:" أيتها السيدة، أنه يلزمنا أن نغلق القبر، فنرجوكِ بأن يكون عندكِ أحتمالٌ وترتضي بأن تشاهدي جسد أبنكِ هذه المرة الأخيرة وتتنحي". فمن ثم يلزم أن تكون هذه الأم الحزينة تفوهت نحو أبنها قائلةً: فاذاً يا ولدي الحبيب أنا ما عدت أشاهدك مرةً أخرى، فأقبل كلمة الوداع مني أنا أمك. وأقتبل مني قلبي الذي أتركه مدفوناً معك، فقد كتب القديس فولجانسوس قائلاً: أن مريم البتول كانت تشتهي بكل عزمها وأرادتها أن تترك نفسها مدفونةً مع جسد المسيح أبنها. بل أن هذه السيدة عينها قد أوحت للقديسة بريجيتا قائلةً لها: أنه يمكن أن يقال حقاً وصدقاً أن قلبين وجدا مدفونين في قبر أبني وهما قلبه وقلبي معاً.*

فأخيراً التلاميذ دحرجوا حجراً كبيراً به أغلقوا القبر على جسد يسوع الكنز الذي لا يوجد كنزٌ يعادل قيمته. لا في السماء ولا في الأرض. فقبل أن نفارق هذا القبر المقدس يليق بنا أن نكتب على حجره هذه الكلمات وهي: أن مريم تترك في هذا القبر قلبها مدفوناً مع يسوع. لأن يسوع هو كنزها الوجيد. وذلك سنداً على قوله تعالى: أنه حيثما يكون كنزكم فهناك يكون أيضاً قلبكم: (لوقا ص١٢ع٣٤) أما نحن فترى أين ندع قلوبنا مدفونةً، ربما في المخلوقات في الوحل. ولكن لماذا لم تكن مدفونةً في يسوع الذي ولئن كان صعد الى السماء فمع ذلك أراد أن يبقى في القربان الأقدس، لا ميتاً بل حياً لهذه الغاية وهي لتكون فيه قلوبنا وهو يملك عليها. فلنعود نحو والدة الإله. اذ يقول القديس بوناونتورا: انها أي مريم البتول لم تشاء أن تفارق حجر القبر قبل أن تباركها قائلةً: أيتها الصخرة السعيدة التي الآن تغلقين مدفوناً داخلكِ ذاك الذي أغلق عليه في مستودعي مدة تسعة أشهرٍ، فأنا أباركِ وأحسد سعادتكِ، وأتركِ أن تحرسي لي أبني هذا الذي هو خيري بجملته وحبي الأعظم. ثم ألتفتت نحو الاب الأزلي وقالت: أنني أستودعك أيها الآب القدوس أبنك هذا الذي هو أبني أنا أيضاً. وهكذا ودعت القبر وما ضمنه وأنطلقت راجعةً الى بيتها. فيقول القديس برنردوس:" أن جميع الذين كانوا في الطريق يشاهدون مريم العذراء راجعةً في تلك الحال المرثى لها، فلم يكونوا يقدروا أن يمسكوا ذواتهم عن البكاء بمرارةٍ. وأن النسوة البارات والتلاميذ القديسين قد كان بكاءهم وخزنهم على مريم أشد من بكاهم وحزنهم على يسوع سيدهم".*

ثم أن القديس بوناونتورا يرتأي بأن أخوات مريم العذراء أي قريباتها قد غطينها بأزارٍ أسود ورجعن بها من المقبرة. وأنه في مرورهن كافةً من عند جبل الجلجلة. حيث كان الصليب بعد مغروساً في الأرض مبتلاً بدم يسوع، فوالدته هذه المتألمة قد كانت هي أول من سجد لهذا العود الخلاصي قائلةً نحوه: أنني أقبلك أيها الصليب المقدس وأسجد لك، لأنك الآن لم تعد خشبة اللعنة بل عود الحب ومذبح الرحمة المكرس بدم الحمل الإلهي الذي قدم هو عليك ذبيحةً لأجل خلاص العالم.*

وقد فارقت الصليب وعادت الى منزلها الذي لما بلغت إليه أخذت تجول بنظرها فيه هنا وهناك من دون أن ترى حبيبها يسوع، بل عوضاً عنه كانت تتصور أمام عينيها أعمال حياته كلها المملؤة محاسن وقداسة، ومعاً أعمال آلامه جميعها التي أحتملها ومات بها. فهناك طفقت تتذكر المعانقات التي كانت تعانقه بها طفلاً في بيت لحم، والمفاوضات التي خاطبها بها وتكلمت هي معه مدة سنين هكذا عديدة في دكان النجارة في مدينة الناصرة وفي أمكنةٍ أخرى، وتتفكر بعواطف الحب المتبادلة منها إليه ومنه نحوها، وبنظراته ذات المحبة، وبكلمات الحياة التي كانت تخرج من فمه الإلهي. ثم بعد ذلك كانت تحضر بأزائها تلك الأشياء كلها التي شاهدتها في النهار عينه مما يختص بآلامه وموته وتنزيله عن الصليب ودفنه. متأملةً في آلات عذاباته من المسامير وأكليل الشوك والحربة وغيرها. وفي جراحات جسده المتخنة. وفي عظامه المجردة وفمه المفتوح وعينيه المعتمتين. أواه كم كانت تلك الليلة موعبةً من الغموم والأحزان الشديدة الملمة بهذه الأم المضنكة من التعب والتألم. وقد كانت حينا بعد حين تلتفت نحو القديس يوحنا الرسول قائلةً بحزنٍ: آهاً لي يا يوحنا أين هو معلمك. وبعده كانت تسأل المجدلية متنهدةً بقولها: أخبريني يا أبنتي مريم أين هو المحبوب منكِ: واحسرتاه من هو الذي خطفه منا. وهكذا كانت تبكي هي وكل الحاضرين بكاءً مراً. وأنتِ يا نفسي أما تبكين، تباً لكِ. فألتفتِ اذاً نحو مريم المتألمة وقولي لها مع القديس بوناونتورا: أنكِ من دون ريبٍ يا سيدتي أنتِ بريئةٌ من الذنب. وأنا هو بالحقيقة الأثيم في ذلك: ثم تضرعي إليها في أنها قلما يكون تجعلكِ أن تبكي معها، فهي تبكي من شدة الحب وأنتِ أبكي توجعاً على خطاياكِ، وأن ما بكيتِ على هذه الصورة فتستطعين أن تفوزي بحظ الآتي عنه القول في النموذج التابع.*

صلاة

أنني لا أريد أن أتركك تبكين وحدكِ يا أمي المتألمة، بل أقصد أن أرافقكِ بدموعي، فأنا أطلب منكِ اليوم هذه النعمة وهي أن تستمدي لي أن أحفظ على الدوام ذكر آلام سيدي يسوع المسيح في عقلي وقلبي. وأن أكون حسن العبادة نحو هذه الآلام المقدسة، لكي أصرف الأيام الباقية من حياتي بالبكاء على أوجاعه تعالى بالجسد وأوجاعكِ! فأنا أرجو أن تكون هذه الآلام عتيدةً أن تمنحني في ساعة موتي طمأنينةً وقوةً، لكيلا اقطع رجائي عند تأملي كثرة الأهانات التي أغظت بها سيدي، وتهبني غفران خطاياي ونعمة الثبات في البر والحياة الأبدية التي أرجو أن أبلغ إليها، وهناك أفرح معكِ وأسبح مراحم إلهي الغير المتناهية.*

فالقديس برنردوس يقول مخاطباً إياكِ يا أمي البتول المجيدة هكذا: أيتها السيدة يا من تختطفين قلوب البشر بعذوبة حلاوتكِ، أما أنكِ أختطفتِ قلبي أنا أيضاً. فمتى تريدينه لي يا خاطفة القلوب، ولهذا أنتِ أهتمي به ودبريه مع قلبكِ، وضعيه في جنب أبنكِ، وحينئذٍ أنا أملك الشيء الذي أبتغيه، لأنكِ أنتِ هي رجاؤنا. آمين.

أعداد الاخت اغابي - خادمات الرب وعذراء ماتارا